متى تعود الحياة لطبيعتها
اقتصاديات الظل والشبكات العرقية ومكافحة التمرد

النقيب روبرت إم تشامبرلين، القوات العسكرية الأمريكية

صورة: تلعفر، العراق وهناك قلعة في الخلفية، 2005 (القوات العسكرية الأمريكية)

Finding the Flow: Shadow Economies, Ethnic Networks, and Counterinsurgency

Captain Robert M. Chamberlain, U.S. Army

This article was originally published in the English September-October 2008 edition.

كثيراً ما يتم وصف تلعفر بأنها "المدينة المشرقة الموجودة أعلى التل"، وهي المدينة العراقية التي قامت قوات التحالف والقوات العراقية فيها بتنفيذ استراتيجية "الإجلاء ثم السيطرة والبناء" واستطاعت أن تعيد الأمور فيها إلى اتجاهها الصحيح. تتزاحم في بعض مناطق تلعفر الأسواق ويلعب الأطفال وتمتزج قوات الأمن العراقية مع السكان المحليين. ومع ذلك هناك صفوف لا تنتهي من الأكشاك الخالية والمنازل المهجورة وآثار الحرب. ارتحل السنيون ولكن تبقى ذكراهم. فما زال السنة يطلقون مدافع الهاون والصواريخ و يقومون بتفجير السيارات المفخخة ضد المجتمع الشيعي. لقد أقيم مكتب عمدة تلعفر ضمن مشروع طموح لجذب السنيين مرة أخرى للمدينة على أمل أن يعود التوازن العرقي الذي كان قبل الحرب وأن تتبدد التوترات الطائفية فيها. ولكن هل هذا حقيقي؟ هل يمثل جمع شمل المجتمعات الدينية في العراق أفضل الأماني للديمقراطية الفتية، أم أن إعادة عقارب الساعة إلى الوراء ضالة منشودة ميئوس منها؟

تغيير الثوابت فقط.

يشير الكثيرون إلى العراق على أنها مجتمع «عاش لآلاف السنين» كما يستشهدون بآلاف الحضارات البشرية التي نشأت في وادي نهر الفرات لتبرير السياسات المعاصرة. ولكن كيف؟ لم تعش العراق لآلاف السنين، كما أن المجتمع العراقي قد تغير إلى حد بعيد على مدى القرن الماضي. ففي عام

1908م كان عدد السكان في بغداد حوالي 150000(1) نسمة بينما يبلغ عدد السكان الآن حوالي 5.7 مليون نسمة(2) ويعادل ذلك عدد السكان في توبيكا، كنساس، ويقترب من مقاطعة ميامي/ديد بولاية فلوريدا في قرن واحد، تحت ظل ظروف حركة استقلال واحدة وثورتين وثلاث حروب خارجية ضخمة إضافة إلى العقوبات الاقتصادية التي فرضت على العراق لمدة عقد. وعلاوة على ذلك، ووفقاً للعالم إيزاك ناكاش،

«لا يوجد دليل يمكن أن يوحي بأن الشيعة كانوا حتى قد اقتربوا من كونهم أغلبية في العراق قبل القرن الـ 19 أو حتى القرن الـ 20».(3) قد تبدو البنية التحتية في العراق قديمة، ولكن في الحقيقة الكثير من المدن في العراق لم تقام إلا حديثاً. مدينة الناصرية، على سبيل المثال، لم يتم تشييدها على وضعها الحالي إلا «في أواخر القرن العشرين».(4) تمر العراق بمراحل انتقالية بداية من الثقافة السنية البدوية، مروراً بحكم صفوة المثقفين السنة على الشيعة القرويين وحتى مرحلة الديمقراطية المدنية الحديثة متعددة الأعراق. وقد تزامن العنف الذي دار بسبب الهوية القبلية والدينية والعرقية مع التغيير السياسي. لا يمكن أن نعزو الانقسامات المجتمعية المعاصرة إلى الصراعات الملفقة في العصور الماضية، فلقد نشأت تلك الانقسامات إثر التحديات السياسية والاقتصادية المعاصرة نسبياً.

بالنسبة لنا لكي ندرك سبب اغتراب المجتمع السني في تلعفر، لا بد أن نتذكر الامتياز السابق الذي كانوا يتمتعون به. يشير أحمد هاشم إلى أن معظم المتمردين من السنة الذي اعتادوا أن يكونوا من بين الصفوة العراقية ووجدوا أنفسهم عاطلين ومذلولين بعد الغزو الأمريكي: "الكثير من رجال تلعفر الأقوياء من قبائل السنة والشيعة، وخصوصاً السنيين، وأفراد حزب البعث بأعداد ضخمة، التحقوا بالقوات المسلحة وخدمات الأمن والمخابرات. وهناك عدد كبير من ضباط الصف وضباط القيادة الأتراك قد عادوا إلى المدينة إما بوصفهم محاربون قدامى أو أشخاص تم إعفاؤهم من الخدمة بعد اشتراكهم في الحروب الثلاثة المهلكة".(5) لقد اشتركوا في الاحتلال السلفي الغاشم الذي هزم نهائياً على أيدي سرية الفرسان المسلحة (ACR) التابعة للجيش الأمريكي في معركة غيرت جوهر المدينة في عام 2005. ويسيطر الشيعة الآن على المجتمع الذي كانت تمثل نسبة السنة فيه سابقاً 70 بالمائة. حيث تصل نسبة الشيعة الآن إلى حوالي 98 بالمائة من عدد المتقدمين للشرطة المحلية في يوليو 2007. انتقل السنيون إلى القرى المجاورة والتمسوا حماية الأسر والقبائل ولكن مازالوا يعتقدون بأن مدينة تلعفر هي "مدينتهم".

النقيب روبرت إم تشامبرلين هو أحد الحاصلين على منحة Rhodes scholarship من جامعة أكسفورد والمتخصص في شئون الفاعلين غير الرسميين في العلاقات الدولية. عين في عملية تحرير العراق (OIF 1) كضابط إسناد نيراني لكتيبة المشاة 327-A/3 ثم رجع إلى (OIF 07-08) كأكبر مستشار مناورات للكتيبة الأولى، اللواء 10، الجيش العراقي الثالث. وهو يقوم حالياً بتدريب فرق التنقلات (Transition Teams) في فورت ريلي، كنساس، كقائد مدفعية ميداني (Field Artillery 5-1). وهو حاصل على البكالوريوس في الفنون والآداب من جامعة كنساس وحاصل على ماجستير في العلوم من مركز أبحاث اللاجئين (Refugee Studies Center) التابع لجامعة أكسفورد.

اقتفاء أثر الأموال

تشعل الانقسامات المجتمعية فتيل العنف في مدينة تلعفر. لكي تدرك ذلك انظر إلى أسواق تلعفر وسلاسل التوريد وطريقة معيشة الناس-خصوصاً مأكلهم وملبسهم ومسكنهم. في الغرب يعتمد المجتمع على مبدأ أن "العمل لا يتسم بالطابع الشخصي".حيث

لا يمكن أن نعزو الانقسامات المجتمعية المعاصرة إلى الصراعات الملفقة في العصور الماضية، فلقد نشأت تلك الانقسامات إثر التحديات السياسية والاقتصادية المعاصرة نسبياً.

يحاول المستهلكون إيجاد أرخص الطرق وأكثرها راحة لشراء السلع التي يحتاجونها بغض النظر عن كينونة البائع أو طريقة الحصول عليها. وعلى النقيض، في تلعفر يتسم العمل دائماً بالطابع الشخصي. حيث تبنى العلاقات التجارية على كونها جزءاً من العلاقات الأسرية والانتماءات السياسية والقرابة العرقية. وتنتمي "الأسواق" إلى مجموعة معينة وقدرة المجموعة على ممارسة العنف تضمن سلامة سلسلة التوريد الخاصة بها.

أحد أسهل الطرق لقياس مدى ازدهار مجتمع ما وقوته النسبية هي أن تستكشف أسواقه وتدرك ما يدور فيها. فمجرد نزهة حول تلعفر سوف تظهر لك ما يحدث. النصف الجنوبي من المدينة أغلبه من الشيعة. كما أن أسواقه مزدهرة. تتشعب المتاجر بداية من محطة الغاز وتباع فيها السلع بمختلف أصنافها -ليس السلع الأساسية فحسب مثل الأطعمة والملابس وأدوات البناء ولكن أيضاً المجوهرات والأجهزة وقطع غيار السيارات. تبدو المتاجر مزدحمة ويندفع المارة ذهاباً وإياباً بين السيارات التي تملأ جوانب الطريق.

ومع ذلك عند تجولك نحو الشمال فإنك تعبر خطاً مخفياً، وفجأة تختفي جميع علامات الأنشطة البشرية. ربما لا يوجد هناك إشارة بنجاح مجموعة ومعاناة مجموعة أخرى. تجد عشرات المتاجر مازالت تشكل صفوفاً على جوانب الشوارع، ولكن بدلاً من العروض المختلفة والمتاجر المزدهرة، تجد صفاً من أبواب المتاجر الزرقاء المغلقة لمسافة طويلة، كلها متشابهة غير أن دمار الحرب قد غير معالمها.، تجد لافتات المتاجر متدلية بما يشير أن هذا المكان كان في يوم من الأيام مكان للعمل والازدهار.

وبرغم ذلك، فقد أصبحت العلاقة ما بين الصراعات الطائفية أعمق من ازدهار الأسواق المحلية. ووفقاً لما عبرت عنه كلمات كارولين نورد ستروم، لابد أن تنظر إلى ما وراء "المكان" وأن تنظر إلى "سير العمل". تجد السوق المحلية جزءاً لا يتجزأ من شبكة من التابعيات والهويات.(6) فإذا ما استورد كل شخص في السوق المحلي من نفس التاجر، فمن المحتمل أن يكون التاجر عضو ذو اطلاع ونفوذ في المجتمع ومنحاز لحزب سياسي أو قبيلة أو منظمة متمردة والتي تؤمن له الحماية لبضائعه أثناء نقلها إلى السوق المحلي ونقل المقابل المالي له أيضاً-أو ربما يكون قائد سياسي أو عسكري أو تمرد وله مصالح تجارية في هذا الجانب.

ومن جهة أخرى، لا تستطيع المتاجر المحلية أن تشتري السلع من التجار إلا داخل نطاق شبكاتهم القبلية أو السياسية فقط. إذا كان الأمر ذلك، فلن يكون هناك تاجراً بارزاً يدعم السوق، فكل الناس يستخدمون الموارد المشتركة (مثل الطرقات أو أبراج الهاتف الخلوي أو شبكات الكهرباء) في إدرار الدخل. بل ربما تجد أن المجتمعات الشيعية والسنية متنافرة للغاية حتى ولو كانوا يعيشون جنباً إلى جنب، لكن تفصلهم حدود خفية.

يستخدم الناس من سنة وشيعة في تلعفر والمناطق المحيطة سلاسل توريد مختلفة. فعندما فر السنيون سكنوا في مناطق في اتجاه الشرق في صفوف قبلية وعصبية في القرى التي تقع على الطريق السريع الواصل بين تلعفر والموصل، وفي اتجاه الغرب في موازاة الطريق السريع المؤدي إلى سوريا. قاموا ببناء متاجر جديدة ودعموا أعمالهم السابقة. وتأتي معظم السلع التي يبيعها تجار التجزئة السنيين من الموصل (أو عن طريق شبكات التهريب التي تتدفق من الحدود السورية). وعلى النقيض، لا يتاجر الشيعة من التجار في الموصل، فهم يذهبون إلى دهوك أو المدن الكردية الأخرى. وقد فرضت منظمة تركمان العراقية، وهي منظمة سياسية سنية، حظراً تجارياً على مدينة تلعفر وقامت بإنشاء نقاط التفتيش الخاصة بها لمنع حرية تدفق السلع إلى المدينة. إن المجتمع السني والمجتمع الشيعي هما عالمان منفصلان ومستقلان تماماً، فيهما تقوم التجارة في جانب أحدهما أو الأخر فقط.

هل هو مبدأ "منفصلون ولكن متساوون"؟

يدرك القادة السياسيون في تلعفر مدى خطورة الموقف كما يحاولون جذب الأسر السنية للعودة مرة أخرى لتجديد النشاط في أسواقهم. وقد أذاع عمدة المدينة وقائد اللواء العسكري مناشدة للسنيين الذي رحلوا عن المدينة، كما اجتمعا على نحو منتظم مع المشايخ السنيين، واعدين بفرض التكافؤ بين السنة والشيعة في برامج من القروض الصغيرة، والمحاولة بمهمة لتجنيد السنيين المحليين في الشرطة العراقية (حتى ولو أثبت ذلك نجاحاً محدوداً). كما طرحت الحكومة المحلية ملايين الدولارات دعماً لإصلاح البنية التحتية وتحسينات الطرق والمياه والكهرباء والخدمات العامة الأخرى. جاء ذلك كله ضمن مبادئ مكافحة التمرد من قبل الولايات المتحدة.

U.S. Army, SGT Curt Cashour

عمدة تلعفر يلقي خطاباً على مسامع المشايخ المحليين في جين يتفحص الفريق راي أوديرنو، قائد الهيئة الدبلوماسية العراقية متعددة الجنسيات، أوراقه أثناء اجتماع في مركز الحكومة بالمدينة، 1 أبريل 2007، تلعفر، العراق.

ومع ذلك، تبقى تلعفر هدفاً لهجمات السيارات المفخخة المزودة بجهاز تفجير ارتجالي في مثل تلك المرافق

تشير مجموعة متزايدة من الأعمال إلى أن الصراعات المدنية يمكن أن تنتهي عندما يعتقد صفوة الاقتصاديين بأنهم يمكنهم جمع المزيد من الأموال في حالة السلم أكثر من حالة الحرب.

من محطات الطاقة والغاز والأسواق الشيعية. يعتقد البعض أن مسببي العنف هم من الدخلاء ممن يحاولون تقويض الحكومة العراقية وقوات التحالف. ويعتقد السنيين أنهم ليس لديهم نصيب في تلعفر. كما يعتبرون تحسينات المدينة دعماً للشيعة من مناصريهم في بغداد. حيث يستطيع الشيعة استخدام الفائض من الوقود أو الطاقة لبسط سيطرتهم. إن تركيز التمويل على إعادة الإعمار والاستفادة من الخدمات في تلعفر مع استبعاد المجتمعات السنية المتواجدين على طول الخط السريع، يقوي هذا المفهوم. ويشير التحالف إلى أن هدفه هو إعادة السنيين إلى تلعفر مرة أخرى، وليس دعم رفاهيتهم في "أحيائهم الفقيرة". وبرغم ذلك فهذا النهج يسهم في سخط السنة ويدعم الهجمات ضد الشيعة، تدعم كل المشاريع الشيعة في تلعفر كما لا يساهم الشيعة بثرواتهم بشيء.

هل من المفترض أن نركز على إعادة دمج المجتمعات أو تسهيل التعايش السلمي؟ تشير المنظمة الدولية للهجرة إلى أن انتقال العراقيين "من مرحلة المجتمعات الدينية والعرقية المختلطة إلى مرحلة المجتمعات المتجانسة" سوف يكون له آثار وخيمة طويلة الأمد سياسياً واجتماعياً واقتصادياً".(7) تخضع العراق منذ الفترة قبل الغزو وقبل أحداث سامراء لإعادة التنظيم الاجتماعي حيث تبحث عن هوية ما قبل صدام. كانت هذه الهوية ستحتضن بشكل تام كل من التعددية السياسية والتسامح الديني والالتزام بالقانون والحكومة الديموقراطية. لكن لا يمكن أن يحدث أياً من ذلك على أرض الواقع.

لقد فر العلمانيون والمثقفون والأثرياء من العراقيين بالجملة، مخلفين وراء ظهورهم شعب مهيأ للتنظيم الطائفي. وهذا الوضع يمثل تحدي خطير أمام قوات التحالف. ومن وجهة نظر ثانية وفي حالة تركيز التحالف على عودة التكامل على الرغم من الشعور السائد تجاهه، فكل من السنة والشيعة سوف يسيئون فهم هذه الجهود وسوف يزيد لهيب دائرة العنف.

فإذا كان شيخك أو إمامك هو ممثلك أمام الحكومة وقوات التحالف، فإن الامتثال لسلطته يصبح شيئاً ذا أهمية ولا يكون ممثلك المنتخب ذو أهمية إلى حد ما على سبيل المقارنة. لذا فإن الاعتقاد الشائع بأن العراق ما هي إلا عبارة عن اتحاد قبلي شبه ديمقراطي يستخدم فيه مسئولي الحكومة لنشر الحماية، أصبح نبوءة قابلة للتحقيق.

مبادئ ووجهات نظر

تشير مجموعة متزايدة من الأعمال إلى أن الصراعات المدنية يمكن أن تنتهي عندما يعتقد صفوة الاقتصاديين بأنهم يمكنهم جمع المزيد من الأموال في حالة السلم أكثر من حالة الحرب.(8) فعلى سبيل المثال، القوات المتخاصمة في أفريقيا التي تقع أعمالها في مواقع متقاربة للغاية، تعطل المناوشات الأعمال التجارية فلا تساوي قيمتها المكاسب المحدودة التي تحصلها. ولسوء الحظ، فإن وجود الموارد الأساسية التي يتم تصديرها (مثل البترول)، ووجود كمية ضخمة من الشباب وسهولة الحصول على الأسلحة الرخيصة والمعمرة يستبعد

احتمال حصول ذلك.(9) وربما يطول انتظار الأمن والسلم الشامل في العراق ويصبح أمراً بعيد المنال.

ولا تزال التحليلات الاقتصادية تعرض وجهات نظر للمساعدة في حل النزاعات المحلية.

المبدأ 1: الأعمال تتسم دائماً بالطابع الشخصي. وهذا يعني أنك لا تحتاج أن تذهب إلى الأسواق فقط لتقيّم ازدهار الأسواق، ولكنك تحتاج أيضاً أن تعرف إلى من تنتمي تلك الأسواق. فإذا وجدت أن 80 بالمائة من أي سوق مزدهرة، لكنهم جميعاً من الشيعة، فإن الأقلية من السنة من المحتمل أن يستمروا في الهجوم حتى تعود إليهم أعمالهم التجارية.

المبدأ 2: فكر في "سير العمل" وليس "المكان". إن رسم خريطة لسلاسل التوريد التي تغذي الأسواق المحلية لهو أمر هام لإدراك علاقات القوى في منطقتك، وتطوير منطقة اهتماماتك وتحديد هوية كبار القادة. لا تقم فقط بحصر البضائع المطروحة في السوق. ابحث عن كيفية وصولها إلى السوق.

المبدأ 3: مكسب الجميع. يؤدي انتشار التحسينات بين المدنيين على قدم التساوي إلى رفع القيمة الاقتصادية لمنطقة معينة. كما أن توزيع المشاريع التي تنفع المجتمعات على حدة يعمل على تشجيع أحد المجتمعات على شن هجمات على الأخر خشية أن ينال الأخر المزيد من القوة. يجب أن تمتد المشاريع إلى مناطق المتمردين وتستفيد منها المنطقة بأكملها. وذلك يخلق ملكية جماعية للموارد العامة-ويقوض من اغتراب المتمردين. فإذا استمد كل شخص قوته من المحطة الفرعية الجديدة، فكل شخص سيكون له مصلحة في حمايتها.

المبدأ 4: الحرب لا تجلب إلا الدمار للأعمال التجارية. فإذا ما كانت السوق تنتمي إلى شيخ قبيلة معينة والقبيلة تشتري البضائع من قريبتها قرب الحدود، فإن أي شيء يهدد تدفق البضائع من الحدود إلى السوق فسوف يحجب الأموال عن خزينة الشيخ. وذلك يتضمن أن مركبات التحالف عليها أن تبحث وتحظر عمليات التهريب بالإضافة إلى مكافحة هجمات السيارات المفخخة المزودة بجهاز تفجير ارتجالي من الأعداء. كما يتطلب من الشيخ أيضاً أن يشهد ويتفحص سيارات الشحن شخصياً للتأكد من تسليم البضائع حيث أن لديه علاقات مع كل من تجار الجملة والتجزئة. اجعل اهتماماتك تتماشى مع اهتمامات التجار المحليين والشعب المحلي.

لا تزال الحرب في العراق صعبة وخطرة ومتقلبة، ولكن التقيد بالمبادئ المذكورة أعلاه يمكن أن يساعد القادة على إدراك وجهات نظر المجتمعات المحيطة بهم. كما يمكن لمكافحة التمرد الحكيمة مع إدراك حالة الأسواق أن تساعد في بس روح السلام بعد سنوات من الحرب.

الحواشي

1. حنا بطاطو، الطبقات الإجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق: دراسة حول الطبقات القديمة والشيوعيين والبعثيين والضباط الأحرار (لندن، دار الساقي، 2004)، 35.
2. www.state.gov/r/pa/ei/bgn/6804.htm>، 8> أغسطس2007.
3. اسحاق نقاش، الشيعة في العراق ، الطبعة الثانية. (برنستون: مطبعة جامعة برنستون، 2003) 25.
4. نقاش، 35
5. أحمد هاشم، التمرد وقمع التمرد في العراق (إيثاكا : مطبعة جامعة كورنيل ، 2006) ، 373-74.
6. كارولين نوردستروم، المجرمون العالميون: الجريمة، المال، والسلطة في العالم المعاصر (بيركلي : مطبعة جامعة كاليفورنيا، (207،2007.
7. المنظمة الدولية للهجرة. "النزوح في العراق: مراجعة كاملة لسنة 2006"، متوفرة على شبكة الإنترنت، .2
8. نوردستروم؛ اليزابيث جون وود، إقامة الديمقراطية من أسفل: انتقالات المتمردين في جنوب إفريقيا والسلفادور (لندن : مطبعة جامعة كامبريدج 2000)؛ بالمشاركة مع المحررين جاكى سيلرز وكريستيان ديتريش، أنغولا واقتصاد الحرب: دور النفط والماس (بريتوريا : معهد الدراسات الأمنية، 2000).
9. ب. و. سينغر، الأطفال في الحرب (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، 2006)